

ثورة سيدي الأزرق بلحاج الفليتي بغليزان 1864

أ.العربي سعيدي

جامعة غليزان

كتب بعضهم عن ثورة "سيدي الأزرق بلحاج" (1) التي خاضها أبناء قبيلة "فليته" (2) سنة 1864 م بمنطقة غليزان و ضواحيها، و لكن بإيجاز شديد، و حتى في كتب التاريخ المقررة بالمؤسسات التعليمية، لا يجد فيها التلاميذ و الطلبة ما يشير إلى أحداثها في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر . لذلك رأينا من المفيد الوقوف عن بعض المحطات التي مازالت مجهولة عن ثورة "فليته"، كونها كانت إمتدادا لمقاومات سيدي فرج و أحمد باي 1830 م، و الأمير عبد القادر 1832 م، و بومعزة 1845 م، و أولاد سيدي الشيخ 1864 م و ما بعدها، مشكلة خطرا حقيقيا على الإحتلال الفرنسي وقتذاك .

القوانين الفرنسية الجائرة تآلب أعراش عدة قبائل.

وسط ظروف متميزة بإستحواذ المستوطنين على مساحات هامة من الأراضي الخصبة بسهل غليزان تقدر ب 52 ألف هكتار، كما بني لهم 36 مركزا إستعماريًا خلال سنوات قليلة من (1858-1863 م) (3) و زيادة على الإجراءات التعسفية، المتمثلة في المساس بالحريات، ثارت أعراش عدة قبائل، من بينها قبيلة فليته، التي إنطلقت من ترابها سنة 1864 م شرارة ثورة بزعامة الثائر "سي لزرق الفليتي"، و عرفت أيضا بثورة فليته، التي شملت عدة مناطق من غليزان و ضواحيه (4) .

وقد أرجع الجنرال "لاباسي" (5) أسباب إندلاعها إلى : "سوء تسيير المكاتب العربية لشؤون الأعراش و الدواوير إلى جانب تعيين قياد على أعراش لا ينتمون إليها، كما زعم أن التعصب الديني كان وراء هذه الثورة الشعبية عام 1864 م (6). و مستند أيضا على تقارير أحد الضباط المكلفين بالمهام الإستثنائية بقوله : " أن الجزائريين قبل سنتين أو أكثر من اندلاع ثورة فليته، كانوا يتسارعون حول شيوع درقاوة " (7) و ظل "لاباسي" من المتحمسين لمحاربة المرابطين و الطرق الصوفية أو الإرسطراطية الدينية على حد تعبيره (8) .

و لكن الأسباب الحقيقية التي تجاهلها "لاباسي" و ضباط الإحتلال الفرنسي، تكمن في موقف الجزائريين الراض للاحلال، و لكل القوانين الفرنسية الجائرة التي حاولت المساس بهويتهم، و استقلالهم، و الاستيلاء على

أراضيهم، وتفكيك روابطهم الاجتماعية والعائلية، ومن تلك القوانين المرسوم المشيخي لسنة 1863م الذي كانت له آثار سلبية على التنظيم العائلي، والإقتصادي في المجتمع الجزائري (9).

سيدي الأزرق بلحاج رائد ثورة فليطة 1864م

يعتبر هجوم يومي 12 و 13 ماي 1864م على طابور العقيد "لاباسي" المتكون من 800 عسكري بمركز زمورة، من أهم الأحداث الأولى، التي عرفت منطقة غليزان و ضواحيها وقتذاك (10). فبعدها كان "سيدي الأزرق الفليطي" على علم بتحركات العقيد "لاباسي"، أحكم خطة للهجوم عليه إتفق عليها سرامع جميع ممثلي الأعراس، في لقاء جمعهم يوم 10 ماي 1864م بسوق مدينة الرحوية (تيارت) (11).

كما دعم سرا مريدي الطرق الصوفية (الرحمانية والقادرية والشاذلية والدراوية والسنوسية)، هذه الثورة، بحيث تمكن "سيدي الأزرق بلحاج" من تجنيد ما بين (2500 و 3000) شخص يتمون إلى كل أعراس منطقة غليزان (12) ومنها قبائل زمورة والمطمر وعمي موسى و وادي أرهيو... وغيرها (13). وهو ما يدل على استعداد سكان المنطقة لمواجهة العدو الفرنسي، ومهما كانت التضحيات. وذكر العقيد "لاباسي" في مذكراته: "أنه سمع ليلة 12 ماي 1864م، طلقات رصاص موجهة نحو مراكز جنوده في زمورة، مصحوبة بالأصوات المنادية بالجهاد، و لما طلع النهار صبيحة يوم 13 ماي 1864م، وجد "لاباسي" الفرصة سانحة للانسحاب (الفرار)، ولكن الثوار حاصروه، في منطقة زاوية "سيدي أحمد بن عودة"، و كان عدد الثوار بحوالي 500 فارس و 2000 من المشاة... (14). ودامت معركة زمورة إلى غاية الساعة الواحدة بعد الزوال أسفرت عن مقتل جندي فرنسي واحد، و جرح أربعة آخرين مع استشهاد 36 مجاهدا، فيما هرب "لاباسي" ببقية جنوده إلى مدينة غليزان طالبا الدعم من فرقة المشاة رقم 67 بالمركز العسكري الفرنسي المقيم بمستغانم (15).

وبعد تحرير زمورة، هاجم الثوار برج الرحوية (16) يوم 21 ماي 1864، بمشاركة ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف نائر أضرمو النيران في أكوام التبن و أحدثوا أربع فتحات في السور سمحت لهم العملية بإقتحام القلعة فدخلوا المركز (17)، وقد شوهد "سي الأزرق الفليطي" ساعئذ واقفا على جمع أتباعه يأمرهم بالانسحاب بعد وصول النجادات العسكرية بقيادة العقيد "لاباسي" (18) وخلال هذه الفترة عمت الثورة منطقة غليزان وضواحيها إلى حدود تيارت. وفي يوم 28 ماي 1864م هاجم الثوار البرج العسكري وحرروا قلعة عمي موسى، وعشية يوم 31 توجه النائر "سيدي الأزرق بلحاج" بقواته نحو غليزان، وقد هاجم في طريقه ثلاثة أبراج عسكرية و قاتل بمدخل

غليزان، فرقة المشاة رقم 82، وفيما كانت الخسائر بمقتل 12 جنديا فرنسيا، فقد "سي الأزرق الفليبي" 8 من رفقاءه (19)

لقد أثارت هذه الأحداث مخاوف وفتح المعمرين، و العائلات الفرنسية، ففر برفقتهم اليهود من مدينة غليزان على متن العربات في اتجاه مستغانم (20). وكاد "سيدي الأزرق بلحاج" أن يجرر غليزان، لولا وصول النجيدات العسكرية يوم الفاتح جوان 1864 من مستغانم، بقيادة الجنرال "روز" (21).

وبغية إبعاد هذا الطابور المكلف بملاحقة "سي الأزرق"، هاجم الثوار معسكر الجنرال "روز" لطرده من مركز برج "دوار سيدي بن عبد الله"، أين وقعت يوم 5 جوان 1864 المعركة (22) التي تكبد فيها المحتل مقتل 30 جنديا فرنسيا، فيما أصيب قائد الثوار "سيدي الأزرق بلحاج" بقذيفة مدفوع وهو في ساحة المعركة أردته مقتولا رفقة 200 شهيد (23) وقد دفنوا في مقبرة دوار الشهايرية ببلدية دار سيدي بن عبد الله التابعة لدائرة زمورة بولاية غليزان (24)

وكعادتها بالعنف الهمجي، أقدمت قوات الجنرال "روز" والعقيد "لاباسي" بأعمال وحشية إنتقامية، تمثلت في أخذ الرهائن من النساء والأطفال، واعتقال الثوار، وفرض الضرائب و غلق الزوايا، كما أضافت سياسة الأرض المحروقة و مجاعة عام 1864م، صعوبات أخرى (25). وعلى الرغم من ذلك، فالثورة التي قادها "سي الأزرق الفليبي" لم تتوقف، بإستشهاد رائدها، بل تواصلت بعده، حتى بعد أسر خليفته الفليبي "سيدي عبد العزيز" يوم 9 جويلية 1864م (26).

مذكرات "لاباسي" تشهد على مخاوفه وجرائمه :

ظلت رموز ثورة فليبة 1864، حية في وجدان أعراس عدة قبائل بغليزان، والذين واصلوا المقاومة الشعبية بتنظيم مظاهرات تزامنت و زيارة الإمبراطور الفرنسي "نابليون الثالث" في يوم 21 جوان 1865م لمدينة غليزان، الذي وجد نفسه في قلب مظاهرة حاشدة، تعبر بحق عن إستمرار ثورة "سيدي الأزرق بلحاج" أمام مرأى مرافقيه وهم: (الحاكم العام المريشال ماكهاون و الجنرالات الثلاث (فلوري - روز - دوليني) و العقيد لاباسي (27). وقد عدد المتظاهرين بحوالي عشرين ألف متظاهر حضرها شيوخ و نساء و أطفال من أعراس عدة قبائل بغليزان، وقد طالبوا خلالها بإطلاق سراح الثوار المعتقلين و منهم المنفيين (28). وفهم "نابليون الثالث" حينها، رسالة المتظاهرين، فلم يكمل برنامج زيارته، كما كان مقررا له أن يطلع على أعمال المعمرين الذين

إستحذوا على الأراضي الخصبة، ولمعاينة السد الذي قرر إستغلال مياهه في سقي سهل مينة المقدرة مساحته ب 52 ألف هكتار (29) .

بل أرغم على مغادرة الموكب متنكرا في برنوس أبيض لأحد السبايس، ثم نقل على متن عربة غير عربة الإمبراطور إلى مدينة مستغانم، وهو يشعر بالنجاة من خطر حقيقي (30) . وإستجابة لمطالب المتظاهرين، أصدر "نابليون الثالث" من مستغانم، عفوا عن المعتقلين و كان عددهم 181 نائرا من بينهم 143 منفيًا كانوا في سجن كورتي بجزيرة كورسيكا (31) . وبالموازاة مع ذلك قرر الإمبراطور ترقية العقيد لاباسي إلى رتبة جنرال، إعترافا بما أنجزه من أعمال وحشية في قمع ثورة فليته 1864، و مذكرات لاباسي تشهد على أنه ظل متخوفا من أعراش قبائل منطقة غليزان بقوله: "ولكن يبقى هناك سؤال جوهرى، هل وصلنا إلى نهاية الحركة؟ لأظن... ولذا فلا أمل لنا في السلم بالتل حيث مراكزنا وكل مصالحنا... " (32) . ويفهم من ذلك، مدى إرتباط المقاومات الشعبية المسلحة في الجزائر ببعضها البعض، ومن الخطأ دراسة كل واحدة منها على حدة، لأن هدفها واحد، و هو تحرير الجزائر من الإحتلال الفرنسي (33)

الهوامش:

(1) - ولد سيدي الأزرق بلحاج 1809م بدوار الحمومية ببلدية وادي السلام، دائرة منداس بولاية غليزان، فهو من الزعماء الجزائريين الذين جمعوا بين القيادة، الصوفية و الثورية، إذا كان رجل علم و مقدم الطريقة الصوفية الدرقاوية و الرحمانية معا، وظل نائرا ضد الإحتلال الفرنسي طيلة الفترة الممتدة ما بين (12 ماي 1864 إلى غاية يوم إستشهاده 5 جوان 1864م، أنظر:

Rinn,(louis), le Royaume d'alger sous le dernier dey »,in(R.A),N°=42,1898,p.15

(2) - فليته إسم القبيلة التي ينتمي إليها، سيدي الأزرق بلحاج، وقد إرتبط بها إسمه كما إشتهرت ثورة 1864 بإسمها، وهي قبيلة عربية ذكرها إبن خلدون ضمن الفروع التابعة لقبيلة زغبة، وكان إستقرارها بمنطقة غليزان و ضواحيها قبل القرن الثالث عشر الميلادي، كان لها دور هام في تاريخ المغرب الأوسط، خاصة في عهد الدولة الزيانية، أنظر:

عبد الرحمن، إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ج 6، ص. 56.

(3) - Rey-goldzeiguer,(Annie),le Royaume Arabe,S.N.E.P,1977,p.280.

(4) - Ibid,p.282

- (5) - لاباسي أوجست من مواليد 1817 كان برتبة عقيد في الجيش الفرنسي، ترأس المكتب العربي بتنس، وكلف فيما بعد بتسيير مقاطعة سيدي بلعباس، ثم مستغانم التي كانت تشرف على منطقة غليزان. رقي سنة 1865 إلى رتبة جنرال، توفي بمدينة تولوز الفرنسية 1875 م
- (6) La passet, (F. Auguste), Un Ancien officier de l'armée du Rhin, paris, 1899, T1, pp.4-6
- (7) - Rey-goldzeiguer, op.cit, p.284
- (8) - Lapasset, op.cit, T1, p.73.
- (9) - بسام، العسلي، محمد المقراني، بيروت: دار النفايس، 1990، ص. 73.
- (10) - Lapasset, op.cit, T2, p.18.
- (11) - Rey-goldzeiguer, op.cit., p.291.
- (12) - Lapasset, op.cit, T2, pp.30-34.
- (13) - يحيى، بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط2، الجزائر: منشورات و.م، 1996، ج1، ص. 180.
- (14) - Lapasset, op.cit, T2, pp.70-72.
- (15) - جريدة المبشر، 22 ماي 1864.
- (16) - الرحوية مدينة تابعة لولاية تيارت حاليا، وكانت في العهد الاستعماري ضمن مقاطعة "لاباسي"، وهي على حدود بلديتي منداس ووادي السلام التابعين لولاية غليزان حاليا
- (17) - Rey-goldzeiguer, op.cit, p.238
- (18) Lapasset, op.cit, T2, p.24
- (19) - Ibid, T2, pp.26-28 .
- (20) - Escalapez, (Vincent), Relizaine (1853-1956), Heintz, oran, 1957, p.55.
- (21) - يحيى، بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص. 180.
- (22) - Yacono, (Xavier), la colonisation des plaines du chéiff, inbert, Alger, 1955, pp.107-108
- (23) - Julien, (c. André), Histoire de l'Algérie contemporaine, paris, 1964, T1, p.430
- (24) - يحيى، بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص. 180.
- (25) - Rey-goldzeiguer, op.cit, pp.300-301
- (26) - أبو القاسم - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، بيروت: داغ، 2000، ج1، ص. 187.
- (27) - Lapasset, op.cit, T2, pp.85-88.
- (28) - René-(Leclerc), Monographie géo et hist de la commune Mixte de la Mina, oran, 1902, p.53.
- (29) - Yacono, (Xavier), op.cit, p.256
- (30) - René-leclerc, op.cit, p.54
- (31) - Lapasset, op.cit, T2, p.92
- (32) - Ibid., T2, p.94.
- (33) - - أبو القاسم، سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص. 171.